

## مصر وعلاقتها بالخلافة

للدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب

— خاض الجند العرب غمار الفتن السياسية التي قامت بين الخلفاء الأمويين والخارجين عليهم ، وكذا بين العباسيين ومناوئهم . وكان لتدخلهم أثر ظاهر في هذه الفتن . وسنأتي بوصف موجز لها لتبين ما كان لدخول جند مصر في غمارها من أثر

— تألب محمد بن أبي حذيفة على خليفة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر وإخراجه إياه من الفسطاط إلى خلع عثمان ، وأسر البلاد بنار الثورة التي انتهت بقتل عثمان وتولية علي بن أبي طالب ، وما تلا ذلك أيضاً من الحوادث التي قامت بين حزب علي وحزب معاوية ، وقيام الدولة الأموية . ولا غرو فقد كان لجند مصر في هذه الحوادث كلها نصيب وافر ، ناهيك بما كان من قتل عثمان الذي تم على أيدي الثوار من مصر دون غيرهم من عرب البصرة والكوفة

وفي عهد يزيد بن معاوية ، دعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه ( سنة ٦٤ هـ ) وصادفت دعوته نجاحاً عظيماً في بلاد العرب والمراق . إلا أن تنصل محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب عن مبايعة ابن الزبير ، ومبايعة يزيد بن معاوية لدم وثوقه بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل ، وخروج الكيسانية مع المختار ابن أبي عبيد الثقفي ، ودعوتهم لمحمد بن الحنفية ؛ كل هذا فت في عصف ابن الزبير ، وأذن بالتحلل أمره

— صادفت دعوة ابن الزبير في مصر بعض النجاح ، فشد أزره أنصار الملوين اعتقاداً منهم أنه يدعو لأهل البيت ، ولحق به كثير من المصريين ، وسأله أن يبعث إليهم والياً من قبله ، فبعث عبد الرحمن بن جحدم الفهري ، فدخل مصر في شبان سنة ٦٤ هـ في جمع من الخوارج من أهل مصر وغيرهم الذين انضموا إلى ابن الزبير في مكة . فاضطر عرب مصر من شيعة بني أمية إلى مبايعة علي كرو

ولما بوبع مروان بن الحكم في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ كاتبه شيعة الأمويين في مصر سرّاً ، فسار في كثير من الأشراف وبعث ابنه عبد العزيز في جيش إلى أبله ( عند العقبة ) ونشط ابن جحدم لحربه ، وأشار عليه ببعض رجاله بأن يحفر خندقاً ( موقمه الآن بجهة القرافة ) فتم حفره في شهر واحد ، وفي ذلك يقول ابن أبي زمرمة الشاعر :

وما الجند إلا مثل جدّ ابن جحدم

وما العزم إلا عزمه يوم خندق

ثلاثون ألفاً قد أثاروا ترابه

وخدوه في شهر حديث مصدق

وبعث ابن جحدم الجيوش والمراكب لحرب مروان وابنه عبد العزيز ، فانهزمت جيوش والي ابن الزبير ، ولم ينفعه خندقه ، ودخل مروان عين شمس ثم الفسطاط في أول جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ . وبني السار البيضاء لتكون مقرّاً له ، وبإيعه الناس إلا نقرأ ظلوها على تمسكهم ببيعة ابن الزبير ، فضرب أعناقهم<sup>(١)</sup> وكانوا ثمانين رجلاً من المعافر . وتتل أيضاً سيّد نظم ( الأ كدر ابن حمام بن عامر بن صعب ) فأتى زهاء ثلاثين ألفاً من نظم ، وهم مدججون بالسلاح ، ووقفوا بباب مروان فأثرين فتوسط بعضهم في الصلح وانصرف الثائرون . وانفق أن توفي عبد الله بن عمرو ابن العاص في اليوم الذي قتل فيه الأ كدر ( ١٥ جمادى الآخرة سنة ٦٥ هـ ) . فلم يستطع القوم أن يخرجوا بمنازته لتألب الجند على مروان ، فدفن في داره<sup>(٢)</sup>

لقد كان للجند العرب في مصر أثر ظاهر في الفتن التي انتهت بقتل عثمان وعلى أيديهم وحدم تم ذلك . ولما انتشر أمر ابن الزبير في الحجاز والمراق وامتدت دعوته إلى مصر حيث لاذت قبولا من نفوس الملوين أخذت له البيعة على يد واليه عبد الرحمن بن جحدم الفهري ، ولما بوبع مروان بن الحكم سنة ٦٤ هـ كاتبه أنصار الأمويين فسار إلى مصر وانتصر على أتباع ابن الزبير ثم دخل الفسطاط سنة ٦٥ هـ ، وبإيعه الناس إلا نقرأ قليلاً أمر بضرب أعناقهم

(١) الكندي : الولاة والقضاة من ٤٠ — ٤٥ ، والفريزي :

المخطوط ٣٣٧ — ٣٣٨

(٢) الكندي من ٤٥ — ٤٦

كذلك كان للجند العرب في مصر نصيب في النزاع الذي قام بين العباسيين والأمويين، ذلك النزاع الذي انتهى بقيام الدولة العباسية . فلما أتى مروان بن محمد مصر قاراً من وجه العباسيين لم يستطع أن يصد صالح بن علي الذي تنقبه إلى مصر ، ولم يقو على مقاومته العباسيون ، لما كان من تائب الجند عليه في هذه البلاد ، فقد خرج القميط بسمود ، وخالفه عمرو بن سهيل ابن عبد العزيز بن مروان ، وقابله قوم من قيس ، ونزلوا في الحوف الشرق ، وأظهروا العصيان . ولما علم جند مصر بحسب مروان إليهم أجمعوا على منعه ، فلما قدم ( ٢٢ شوال سنة ١٣٢ هـ ) لبس أهل الحوف الشرق السواد لباس العباسيين ، وحذا حذوم أهل الاسكندرية والصعيد

وعلى الرغم من هذا كله فقد استطاع مروان أن يدخل الجزيرة ، ومن ثم شرع في محاربة الجند العرب في الحوف الشرق وفي الاسكندرية والصعيد ، وفي فتح ننتة القبط في رشيد ، ثم قدم صالح بن علي البجلي ( ١٠ ذو الحجة ١٣٢ هـ ) في إثر مروان ، فسار هذا إلى بوسير ، في كورة الأشترين ( من مديرية بني سويف ) فوافاه صالح بن عدي في جيوشه وقتله ( الجمعة ٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ ) ثم تنقّب ذوى قرياه والمهاجرين له في هذه البلاد ، ودخل القسطنطين ( ٢٣ المحرم سنة ١٣٣ هـ ) ، وبذلك زال سلطان بني أمية وتوطدت دعائم الدولة العباسية (١) . ولا شك في أن لقيام جند العرب في مصر في وجه مروان أثراً ظاهراً فيما أحرزه صالح بن علي العباسي من نصر منبج على مروان ، مما أدى إلى زوال سلطان بني أمية زوالاً لا رجوع بعده

\*\*\*

استعمل العباسيون اسم الشيعة أداة لازالة الخلافة الأموية ، فلم يكفهم تأسيس الدولة العباسية حتى قام النزاع بينهم وبين العلويين الذين أخذوا يكيدون لهم بالسيف حيناً وبالخيلة حيناً آخر . وفي خلافة المنصور ( ١٣٦ ، ١٥٨ هـ - ٧٥٤ ، ٧٧٥ م ) دعا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي المعروف بالنفس الزكية إلى نفسه سرا ، وتلقب بأمر المؤمنين . ثم ظهر في سنة ١٤٥ هـ

بمد أن صادفت دعوته نجاحاً عظيماً (١) في مكة والمدينة ، حيث اعترف الناس بإمامته ، وأفتى الامام مالك بأحقية بالخلافة من أبي جعفر . ومن المدينة أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوته ولكن محمداً لم يش حتى يرى نتيجة دعوته ، فقد مات على يد ابن موسى العباسي ، فدعا أخوه إبراهيم إلى نفسه ، وشد أزره كثير من قهماء البصرة وغيرهم من ذوى الرأي والجاه ، وانضوت المترلة والزيدية تحت لوائه وعاونه الامام أبو حنيفة وراسله سرا . وبهذا كله تمكن إبراهيم من الاستيلاء على واسط والأهواز وفارس (٢)

بيد أن حياته آلت إلى ما آلت إليه حياة أخيه من قبل . فقد قتله عيسى بن موسى ( الاثنين أول ذي الحجة ١٤٥ هـ - ٦٨٢ م ) في موقعة باخرا التي بين الكوفة وواسط (٣) . ولقد ظهرت دعوة ابن عبد الله في مصر وتابع كثيرون من أدل هذه البلاد ابنه علي بن محمد الذي أنقذه أبوه لنشر الدعوة (٤)

غير أن والي المنصور على مصر استطاع أن يمحيط أعمال علي وأعمال من ناصروه ، وظل على ذلك حتى وصل إلى مصر خبر وفاة إبراهيم بن عبد الله فحفظ في يد الشيعة ، وانطلقت جذوة الثورة . ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر علي بن محمد بن عبد الله (٥) كذلك كان لجند مصر نصيب كبير في الفتنة التي قامت بين الأميين وأخيه المأمون شأنهم في الفتن الخارجية التي كانت تنشب بين الخلفاء والخارجيين عليهم أو المناقسين لهم ، وغدا اشتراك هؤلاء الجند في الثورات مألوقاً لديهم ، حتى في الأحوال التي لم يكن لمصر تمت ما يدعو إلى الاشتراك فيها

ولسنا ندرى ما الباعث الحقيقي الذي كان يدفع هؤلاء القوم إلى الزج بأنفسهم في غمار هذه الثورات . ولا شك في أنه لم يكن لهذه الثورات علاقة ما بالمصيبة العربية التي جاء الاسلام ماحياً

(١) يحيى بن الحسين ( مكتبة لندن ) مخطوط رقم ١٩٤٧ ورقة ١٥

أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٤٥ - ٤٦

(٢) يحيى بن الحسن ( لندن ) مخطوط رقم ١٩٤٤ ورقة ١٥ ومايلها

(٣) أرب إلى الكوفة منها إلى واسط وتبعه عن الأولى بسمة عشر فرسخاً . راجع ياقوت : معجم البلدان

(٤) للفريرى ج ٢ ص ٣٣٨

ر. الكندي ص ١١٤

(١) الكندي : شرحه ص ٩٤ - ٩٥

ودارت بين الفريقين مناوشات وحروب كانت النصر فيها في جانب أنصار المأمون . على أنه لما بلغ قيساً قتل الأمين (المحرم سنة ١٩٨ هـ) وبيعة المأمون تفرقوا - شأنهم في الفتن التي اشتركوا فيها .<sup>(١)</sup>

هذا ما كان من أمر اشتراك عرب مصر في الفتن الخارجية وهي فتن سياسية في جملها وإن كانت قد ألبست لباس الدين ، ليكون تأثيره في النفوس أقوى وأشد

ولا يبرز عن بالناس ما كان من الانقسامات المذهبية التي شطرت العالم الاسلامي شطرين : سنة وشيعة . ولقد كان لكل من هذين المذاهبين في مصر أنصار وأعوان . كما كان بها أيضاً أنصار لمذهب الخوارج الذين اعتزلوا علياً ، فضلاً عما كان لظهور المذاهب الأربعة من التأثير في مصر حيث ساد مذهب مالك في القرن الثاني للهجرة ، وظل على ذلك نحو قرن ثم ساد بمذهبه مذهب الشافعي ، وبقى على ذلك إلى اليوم ، وإن كان للتأثير من هذه الناحية لم يظهر في ثوب عدائي مصحوب بفتن وحروب وعلى الجملة فقد كان عمل الجند للعرب في مصر ينحصر في عدة أمور

- ١ - القيام بالفتوح الخارجية لتأمين مصر من الغرب والجنوب
- ٢ - الاشتراك في النزوات البحرية التي قام بها الخلفاء الأمويون والعباسيون ضد الدولة الرومانية الشرقية أو القضاء على المحاولات التي بذلتها هذه الدولة حيناً بساحل حين لاسترداد مصر
- ٣ - قمع للثورات الداخلية التي كان يقوم بها المصريون في وجه الولاة

٤ - الاشتراك في الفتن التي قامت بين الخلفاء والخارجيين عليهم أو المنافسين لهم

وظالما اتسم العرب في مصر على أنفسهم إلى فريقين : فريق يتناصر الخليفة وفريق يتناصر الخارج عليه والمنافس له

هذا إلى ما كان من قيامهم في وجه الولاة والممال إذا ما اشتتروا في جمع الخراج ومن انقسامهم على أنفسهم بسبب ما كان من ظهور الاختلافات المذهبية في المدينة وفي دمشق وبنسداد

لها ، وإن كانت قد ظهرت في مواطن كثيرة بعد الاسلام<sup>(١)</sup> . ويظهر أن الجند العرب كانوا لا يزالون مرتبطين بدار الخلافة بروابط الجنسية أكثر من ارتباطهم بمصر نفسها ، إذ لم تكن القومية المصرية قد شملت بعد المصريين من القبط والعرب جميعاً . غير أن الأمر الذي يسترعى النظر ما رواه الكندي من أن مصر كانت حين قام النزاع بين الأمين والمأمون في أمن ودعة ، وكذا كانت راضية عن واليها جابر بن الأشعث الطائي ، وعن حكمه ، وأن هذا الوالي كان محبوباً لدى الخاصة والعامة في هذه البلاد<sup>(٢)</sup> على أنه سرطان ما احتدم النزاع بين الأمين والمأمون بسبب ما كان من خلع الأمين أخاه المأمون وترك النساء له على التنازل وتوليته عهد ابنه موسى بدلا منه حتى غضب العرب في مصر وغيرها ، وتكلموا في خلع الأمين لنكته المهمل الذي تركه أبوه الرشيد وأودعه الكعبة الشريفة ، وهذا كاف وحده لإثارة سخط الناس عليه . وظهر في مصر السري بن الحكم الذي استغل هذا الظرف لنفسه لإعلاء شأنه ورفع ذكره ، إذ كان منذ أني مصر في أيام الرشيد خاملاً لا حثية<sup>(٣)</sup> له . فدعا إلى المأمون فبايعة فشر يسير . ولكنه ظل على نشاطه في نشر الدعوة حتى دعا المأمون أشراف مصر إلى بيئته فأجابوه سرا . وأنى كتاب هرمة بن أعين أحد قواد المأمون المدودين إلى وكيله على ضياعه بمصر وهو عباد بن حيان ، فقرأ هذا الكتاب ( كتاب هرمة ) على ملا من الجند في المسجد ودعاهم إلى خلع الأمين فأجابوه بالسواد الأعظم منهم وخلعوه ( جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ ) ، ثم بايع الناس عبادا على ولاية مصر ، وأخرجوا والي الأمين من القسطنطين فثبت المأمون عبادا في هذه الولاية .<sup>(٤)</sup>

ولما علم الأمين بما حدث في مصر من خلعه وإخراج عامله كتب إلى ربيعة بن قيس ( رئيس قيس بالحواف ) بولايته على مصر ركتب إلى البمانية يطلب إليهم أن يقوموا بمعاونة قيس هذا فأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون ، وخرجوا إلى القسطنطين ،

(١) مثال ذلك النزاع الذي كان بين انتزارية والضرية ، وهو من أهم العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة العباسية

(٢) الكندي ص ١٤٦

(٣) الكندي ص ١٤٨

(٤) الكندي ص ١٤٨

(١) الكندي : كتاب الولاة ص ١٤٩ - ١٥١